مفهوم الجمال في الإسلام

د. م. حسان فائز السراج

تعرض مفهوم الجمال في القرآن الكريم إلى الكلام عن جمال النساء، والحدائق، والكون، والحيوانات، للإنسان، والأموال، والأولاد، والجنة، وكذلك الكلام عن الجمال من خلال السنة المطهرة، والعلاقة ما بين الأخلاق والجمال، ومحاولة الربط بينهما من منظور إسلامي، وعن أنواع الجمال ومعاييره في الإسلام، ودوره في العلاقات الإنسانية التي صورها الإسلام، فالجمال في الإسلام أوسع من مفهومه لدى الغرب.

جاء مفهوم الجمال لدى الفلاسفة المسلمين عما يحدث في النفس وفي إدراك الخير والحق والقبول والرضا، ومنهم من اعتمد التأويل والتمهل للجانب الجمالي، وهناك رأي آخر يرى أن الخلق الإلهي أجمل من الخلق الإنساني، وأنه يستمد كماله بفعل محاكاته للخلق الإلهي، لا على العمل الفني الذي لا يخلو من صنع يعتمد على التجربة الجمالية للفنان ذاته، وخبرته الفنية في إبراز جمال الطبيعة الكامن، والتي تحتاج إلى إبداعاتهم على مستوى المهارة في التصور الحدسي، فضلاً عن التجلي الذي يري الجميل بذاته، فيصبح عمله الفني تجلياً للجميل المطلق وهذا ما نجده في فن البكتوغراف الذي مزج بين الآيات القرآنية أو الأسماء الحسنى بتكوينات تشكيلية فكرتها تحمل مضامين فكرية مباشرة تتوافق مع فكرتها الأساسية.

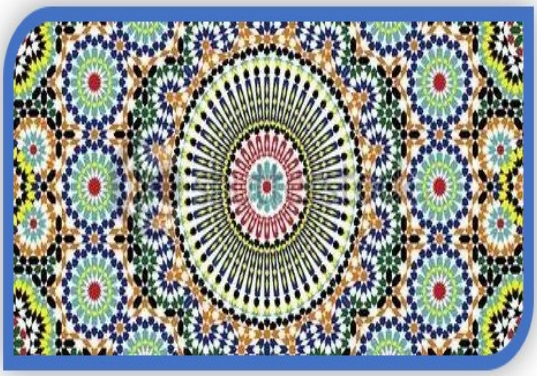

فالجَمَال في اللغة العربية – مصدر الجَميل، والفعل جَمُل، وقوله عزّ وجلّ: **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**، أي بهاء وحسن، والجمال صفة من صفات الخالق سبحانه وتعالى؛ فقد جاء في الحديث النبوي إن الله جميل يحب الجمال، والله سبحانه وتعالى لم يحرم الزينة على عبادة بل هي عطاء من الله لهم، قال الله تعالى: **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**، فالقيم الجمالية لعناصر العمارة الإسلامية تبرز أكثر في الزخارف الإسلامية المتنوعة التي غطت عدداً كبيراً من العمائر الإسلامية المختلفة، والمعماري المسلم كان مدركا لهذا وهو ما ظهر بصفة خاصة من خلال استخدام الزخارف الخطية والتي أخذت أنماطًا مختلفة من الكتابة وسلاسة في

الحركة وتجانسا في الحروف ووضوحا في الجانب الإنساني ممثلة في اليد التي قامت بالكتابة والتلوين وإدخال بعض المكونات الفنية بعضها التزم بوضوح الخط لتسهل قراءته وبعضها استخدمت الكلمات في أوضاع معكوسة أو مقلوبة من باب التجميل الفني وهكذا في كل أشكال من أشكال الفن يبحث عن الناحية الجمالية فيه.

وقد ورد في اللغة العربية كلمات عديدة تدل على مفهوم الجمال بمعناه العام، كما جاء هذا المفهوم ليدل على معانٍ خاصة، ففي كتاب فقه اللغة للثعالبي؛ قسم مفهوم الحُسن عدة أقسام تحمل كل منها دلالة على معانٍ معينة، فالوضاءة تكون في البشرة، والجمال في الأنف، والصباحة في الوجه، والرشاقة في القد، والملاحة في الفم، والحلاوة في العينين، واللباقة في الشمائل، والظرف في اللسان، ونجد في القرآن الكريم ألفاظًا عدة دلت على مفهوم الجمال منها البهجة والحسن والجمال والزينة والنظرة، وفي لسان العرب الجمال من فعل جمل، ومصدره جميل. وعند ابن سيده يشير معنى الجمال لغة إلى الحسن في الخلق والفعل، وعند ابن الأثير الجمال يقع على المعاني والصور، ويقال حسنت الشيء زينته، والحسن ضد القبح ونقيضه، والإحسان ضد الإساءة، وفي الصحاح الحسن معناه الجمال.

ولا يرتبط الفن الإسلامي بالدين كعقيدة فقط، وإنما يشمل أيضًا وجوهًا فنية وأنماطًا في الثقافة الإسلامية ضمن حدود إسلامية، ومن أكثر أنواع الفنون التي ظهرت في هذه المرحلة هي الفسيفساء، والأرابيسك، والخط العربي الإسلامي والعمارة الإسلامية أيضًا، بالإضافة إلى كافة أشكال التجريد.

ويمكن تعريفه بأنه: أحد فروع الفلسفة التي تتعامل مع الطبيعة والجمال والفن والذوق، أما مفهومها العلمي فهو عبارة عن دراسة حسيّة أو مجموعة من القيم العاطفية المعروفة بالأحكام المنبثقة عن الشعور أحيانًا، وقد ذكر الباحثون في الجماليات بأنها تفكير نقدي يتمحور حول الثقافة والفن والطبيعة، أما الجمال عند (هربرت ريد) فإنه تلك الوحدة المُمثلة للعلاقات الشكلية بين الأشياء المدركة حواسيًا، فالجمال عند الفلاسفة كان له حظّ كبير من الكلام والبحث، وهو عندهم صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النّفس سروراً ورضا، وتستحسنها النّفوس السوية، وعلم الجمال باب من أبواب الفلسفة يبحث في الجمال ومقاييسه ونظريته، فالحضارة هي مجموع إبداع الأمة في عالمي الفكر والأشياء، أي في الثقافة التي تهذّب الإنسان وترتقي به، وفي التمدن الذي يجسد ثمرات

الفكر في التطبيق والتقنية وأشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر. وإذا كانت هذه هي الحضارة، فإنها كإبداع بشري في المنظور الإسلامي وفي التجربة الإسلامية، وثيقة الصلة بدين الإسلام كوضع إلهي نزل به الوحي على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففي التجربة الحضارية الإسلامية، كان الدين هو الطاقة التي أثمرت ضمن ثمراتها؛ توحيد الأمة وقيام الدولة والإبداع في كل ميادين العلوم والفنون والآداب – شرعية وعقلية وتجريبية –، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديثة للحضارة الأخرى، وإحيائها وغربلتها وعرضها على معايير الإسلام، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير، لتصبح جزءاً من نسيج هذه الحضارة الإسلامية، وإن كانت إبداعًا بشريًا، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة (الإسلام الديني)، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحدثها، وعندما تجسد في واقع المسلمين، تلك هي العروة الوثقى بين دين الإسلام وبين حضارته، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين؛ الشرعية، والعقلية، والتجريبية، والجمالية.

فلماذا خلق الإنسان في هذا الوجود؟ حيث يتشكل الكون من صور طبيعية جميلة؛ عناصرها أشجار وعيون وشلالات تنساب سيولها على الصخر، على أنغام موسيقى طبيعية تطرب الآذان، وسماء زرقاء وطيور تحلق في أجواء السماء، وبحار ووديان وأنهار، وشمس عند الشروق وعند المغيب تمتع العين، وقمر وضاء في ليلة البدر الجميل، مشاهد فيها متعة النفس؛ لأنها غنية بمظاهر الجمال الحسي المنظور والمحسوس! ولقد زُيِّن للناس حب أشياء كثيرة وجعلت جاذبيتها فيما أودعها البارئ من جمال ومتعة ومنفعة، لكن مفهوم الجمال في الإسلام أوسع وأرحب من هذه الصور والمشاهد المادية والطبيعية؛ إذ الجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ "الجمال" في نطاق ضيق لم يتجاوز ثماني مرات، واحدة منها بصيغة المصدر، والباقي كانت صفة، وكلها في مجال الأخلاق باستثناء قوله تعالى: **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** (النحل: ٦)، ويعني فيها الخيل والإبل، ورأى أبو هلال العسكري، من باب الوصف

المعنوي فيقول: في صدد الفرق بين الحسن والجمال أيضاً: "إن الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق، ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحسن في شيء، ألا ترى أنه يقال لك: في هذا الأمر جمال، ولا يقال لك فيه حسن، أما لفظ "الحسن" فقد ورد في القرآن الكريم كثيراً، في صيغه المختلفة، وقد استعمل في الصور كما استعمل في المعاني، ونستطيع القول: إن الفرق الذي بيّنه أبو هلال بين الكلمتين غاية في الدقة، وإن كان الاستعمال العام قائماً على مساواة الكلمتين مع بعضهما كما جنح إليه صاحبا القاموس والصحاح حيث فسرا الحسن بالجمال، وقد حاول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله (المتوفى ٥٠٥ هـ، ١١١٣م) أن يضع تعريفاً للجمال فقال في صدد حديثه عن معنى الحسن والجمال: "**حسن كل شيء في كماله الذي يليق به**".

ويوضح ذلك بقوله: "كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدرما حضر، فالفرس الحسن: هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرٍّ وفرٍّ عليه، والخط الحسن: كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به... فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

ونستطيع التعرف على مكانة الجمال من خلال التعرف على منزلته ضمن اهتمامات الناس، كما نستطيع معرفة ذلك من أوامر الشريعة التي جاءت لحفظ مصالح الخلق ورعايتها، وتصنيف هذه الأوامر، وترتيبها بحسب أهميتها ومعرفة موقع ما يتعلق بالجمال منها، وقد كفانا علماء الأصول مؤنة البحث حيث قاموا بعمليات استقرائية استطاعوا بعدها أن يضعوا النقاط على الحروف.

وتحدث القرآن الكريم أيضاً عن آثار الجمال التي قد تكون أثراً في العين أو على النفس، فقال تعالى: **إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** (البقرة: ٦٩)؛ فالسرور في الآية الكريمة هو شعور يتولد في النفس عند رؤية كل شيء جميل، كما أنّ من آثار الجمال في القرآن الكريم ما يحدثه نعيم الجنة من لذة للأعين التي تراه، قال تعالى: **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** (الزخرف: ٧١)، كما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: **لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** (الأحزاب: ٥٢)، فالإعجاب هو كذلك أثر من آثار الجمال على النفس الإنسانية.

فالجمال كلمة تهواها النفوس وتعشقها القلوب، وهو مفهوم يهيم فيه البشر وينشده الكل، والجمال بكل مفاهيمه ومعانيه جبلت الفطرة البشرية السوية على السعي من أجل الحصول عليه والتمذهب بمذهبه، وما أكثر ما ظلم الجمال في الحضارات السابقة عبر الأزمان والعصور مع اختلاف المفاهيم بين جاحد متزمت وصاحب هوى مسرف، وما أكثر ما تغنى به الشعراء ومدحه الأدباء ووصفه الخطباء، ولكن لم يصل إلى كنهه وإلى جوهره ووازن في مفهومه سوى رب الجمال وخالقه، ولذلك فخالق البشر أعلم بما يحبه خلقه؛ فهو بهم أعلم وبنفوسهم أخبر؛ لذا فقد أقر الدين الإسلامي الحنيف ما تتطلبه هذه النفس البشرية من سرور وفرح وبهجة ومرح وأشواق وجمال، وأحاط كل ذلك بسياج من الأدب الإسلامي الرفيع؛ لتبلغ النفس البشرية حظها الوافر من الجمال بعيداً عن الخنا والحرام والظلم والعدوان والغل، ولقد

أورد رب العزة والجلال في كتابه الكريم بعضًا من صور الجمال، فيما خلق من كائنات وصاغها سبحانه وتعالى في قالب من الكلام الرباني، تجعل النفس تتناغم مع ذلكم الوصف، وتنتشي حب الجمال وتذوق حلاوته، وتعيش معه واقعًا ملموسًا، من ذلك وصفه تعالى لخلق النباتات والحدائق المبهجة؛ فقال عز من قائل: **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**، وقوله سبحانه وتعالى: **انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**، وقال تعالى: **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ**، وذكر سبحانه الجمال في خلق الحيوان فقال: **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**.

وذكر كذلك الجمال في أبهى صوره وأجمل رونقه حين ذكر السماء وزينتها والأرض وجمالها فقال سبحانه وتعالى: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**، وقال: **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**.

ولكي يتسق هذا الجمال الرباني في المخلوقات التي سخرها رب الكون للبشر فقد أمر عباده بأن يحبوا الجمال ويعملوا من أجله وأن ينشدوه، بل وخصص ذلك بأن يكون المسلم حريصا عليه حين يمثل بين يديه في أسمى عبادة وأعظمها فقال سبحانه وتعالى: **يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**.

وحين نتصفح سيرة نبينا الجميل وحبيبنا بعد الواحد الأحد نجد أنه مثال في الجمال وآية في الحفاظ عليه؛ فقد روي عنه صلاة ربي وسلامه عليه قوله: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنة؟، قال رسول الهدى: إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر من بَطَرَ الحق وغَمَصَ الناس.

وأضفى الإسلام على كل شيءٍ صبغة الجمال حتى الابتلاء الذي يظن الإنسان أن فيه إيذاء ومشقة للنفس البشرية، فقد جعله جميلاً؛ إذ قال سبحانه وتعالى: **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**، وقال: **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**، وقال: **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**، فتعلم السلف الصالح من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم؛ كيف يكون الصبر جميلاً وكيف يكون الصفح جميلاً، بل وكيف يكون الهجر جميلا، فالمسلم بفطرته السليمة وحسه المرهف عنده حب وميول إلى الجمال، يفوق أي شخص آخر، فما المانع من أن يجعل حياته كلها جمالا وسعادة، فالإسلام لا يوجد فيه عبوس ولا كآبة ولا ترى فيه سوداوية، والمؤمن مرحٌ؛ بل نبينا صلى الله عليه وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقا، كان إذا دخل بيته دخله بسّامًا ضحاكًا يؤنس أهله ويعينهم على الخير وعلى شؤون الحياة، تقول له زوجته السيدة عائشة يوما: كيف حبك لي؟ فيقول عليه السلام هو كعقدة الحبل، فتقول له من حين لآخر: كيف القعدة؟ يقول: لها على حالها.